المحاضرة الثانية: نظريات نشأة اللغة الإنسانية

اختلف العلماء والباحثون منذ القدم في موضوع أصل اللغة الإنسانية ونشأتها، وظهرت عدّة نظريات في ذلك أهمّها: نظرية الوحي والتوقيف، ونظرية التواضع والاصطلاح، ونظرية محاكاة أصوات الطبيعة.

1/ نظرية الوحي والتوقيف:

تتلخّص هذه النظرية في أنّ الله أوحى إلى آدم أسماء الأشياء فكانت تلك الأسماء هي مادة اللغة الأولى، ومن أشهر القائلين بهذا الرأي من القدماء اليوناني "هيراقليط" (ت 480 ق م) والجاحظ وأحمد بن فارس.

أما المحدثون فمن أبرزهم الأب "لامي" (ت 1711 م) والفيلسوف "دونالد" (ت 1840 م).

اعتمد العلماء العرب والغربيون على بعض النصوص في التوراة تتحدّث عن تعليم آدم الأسماء، وقد ذُكر ذلك في القرآن الكريم في قوله تعالى: (**وعلّم آدم الأسماء كلها**) (البقرة: 31).

وبناء على كلام أهل التوقيف، لا يجوز قلب اللغة مطلقا ؛ فلا يجوز تسمية الثوب فرسا مثلا، وقدم ابن جني تفسيرا آخر، هو أن الله تبارك وتعالى : علم آدم أسماء جميع المخلوقات بجميع اللغات العربية والسريانية والفارسية والعبرانية والرومية وغير ذلك من سائر اللغات . فكان هو وولده يتكلمون بما ثم إن ولده تفرقوا في الدنيا وعلق كل منهم بلغة من تلك اللغات، فغلبت عليه واضمحل عنه ما سواها لبعد عهدهم بها.

ويلحظ أن هذه النظرية تعتمد على النصوص النقلية، كما أنها لا تخلو من اعتراضات، ومنها: 1- أن الآية التي احتج بما علماء المسلمين ليست دليلا قاطعا، فقد اختلف المفسرون في المراد بالأسماء.

2_ أنه لو كانت اللغة توقيفية لما جاز لنا أن ندخل فيها شيئا، ألا ترى إلى لغتنا العربية اليوم ونحن ندخل فيها من مصطلحات العلوم والفنون الشيء الكثير ؟ و أننا ننقل دلالات بعض الألفاظ كالسيارة، والدراجة وغيرها؟ كذلك إن حدوث الترادف والاشتراك و التضاد في اللغة لدليل على أن اللغة ليست كلها توقيفا من الله تعالى.

2 / نظرية المواضعة والاصطلاح

يذهب أصحاب هذه النظرية إلى أن اللغة هي رموز اتفق عليها أوائل البشر واصطلحوا على ألفاظها ومدلولاتها.

ومن أشهر القائلين بالمواضعة والاصطلاح اليوناني "ديموكريت" (ت ق5 ق م)، وبعض الفلاسفة الإنجليز كـ "آدم سميث" و "دونالد ستيوارت"، وقد صور ابن جني هذه النظرية بقوله: "وذلك أنهم ذهبوا إلى أن أصل اللغة لا بد فيه من المواضعة، قالوا: وذلك كأن يجتمع حكيمان أو ثلاثة فصاعدا، فيحتاجوا إلى الإبانة عن الأشياء و المعلومات، فيضعوا لكل واحد منها سمة ولفظا إذا ذكر عرف به ما مسماه، ليمتاز عن غيره، وليغني بذكره عن إحضاره إلى مرآة العين".

وقداعترض على هذه النظرية باعتراضات منها:

1_ أن التواضع يحتاج إلى لغة سابقة يتفاهم بها. فبأي لغة تواصل هؤلاء؟

2- أن هذا القول مجرد دعوى تفتقر إلى دليل؛ يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: "فلا يمكن لأحد أن ينقل عن العرب، بل ولا عن أمة من الأمم أنه اجتمع جماعة فوضعوا هذه الأسماء الموجودة في اللغة، ثم استعملوها بعد الوضع...".

3/ نظرية محاكاة أصوات الطبيعة

هذه النظرية تذهب إلى أن أصل اللغة هو محاكاة الإنسان لأصوات الطبيعة مِن حولِه، كأصوات الحيوانات وأصوات حركة النباتات والجمادات ومظاهر الطبيعة المختلفة، حيث حاول الإنسان – بحسب هذه النظرية – التعبير عن الأشياء من خلال محاكاة الأصوات التي تصدر عنها، مع الاستعانة بالإشارات والحركات الجسمية، فلمّا تطوّرت لغته استغنى بالتدريج عن تلك الإشارات المصاحبة.

وقد ذكر ابن جنّي هذه النظرية في كتابه "الخصائص" وخصّص لها فصلا سمّاه (إمساس الألفاظ أشباه المعاني)، أورد فيه بعض الأمثلة عن المناسبة بين الألفاظ ومعانيها، وأشار بعض المحدثين إلى هذه النظرية وأهميتها في تفسير اللغة ، كإبراهيم أنيس وصبحي الصالح وعلي عبد الواحد وافي، كما أيّدها علماء الغرب، ومن أبرزهم الإنجليزي "وتني".

ولعلّ أهمّ ما وُجّه إلى هذه النظرية من نقد أنها تعجز عن تفسير عشرات الآلاف من الكلمات التي لا تلاحظ فيها أية علاقة بين أصواتها ومعانيها.